العرب
الأربعاء 2021/05/05
السنة 43 العدد 12051

«الكرملي».. رواية مئة عام من التاريخ الفلسطيني

سميح مسعود يعيد سرد ما حدث في رواية تجمع بين التاريخي والدرامي

لقد تطورت الروايــة العربية منذ منتصف القرن الماضي وصار لها حضور يفرض نفســه علىٰ غيرها من الأجناس والأنواع، ولاسيما الشعر الذي ظل يحتل المكانة الأساســية في الإبداع العربي. وصارت الرواية لســان العرب ووســيلتهم الأولىٰ للتأريخ، لا بمجرد ســرد للماضي وإنمــا بإعادة قراءته واســتحضار أهم تفاصيله واســتنطاقها فــي ما يمكن تســميته بالرواية التاريخية علىٰ غرار رواية «الكرملي» للكاتب الفلسطيني سميح مسعود.

عمــان – يواصــل الكاتــب ســميح مســعود تأثيث الذاكرة بأعماله الأدبية والسيرية المتنوعة التي بدأها بثلاثيته "حيفا برقة.. البحث عن الجذور"، مرورًا بـ"علىٰ دروب الأندلس" و"تطوان وحكايا أخــرى" و"هوشــيلاجا" و"أنطونيــو التلحمي"، وانتهــاء بروايته "الكرملي" التي صدرت مؤخرًا.

وإذا كان الكثير قد كُتب عن التاريخ الفلسطيني خلال الأعوام المئة الفائتة، إلا أن هذا التاريخ يبقىٰ سجلًا مفتوحًا، لأن لــكل حيــاة قيمتهــا، ولــكل حــدث أهميته، وكل عمل يُكتب في هذا المجال يسهم في استكمال الصورة عن المرحلة التــي مــرّت من تاريــخ فلســطين بكل ألوانها وتقلباتها.

البعد التوثيقي

فــي روايــة "الكرملي" التــي اختار صاحبها، ابــن حيفا المدينــة العريقة، المتقدمة ثقافيًا وحضاريًا، شــخصيات تنتمي إلــىٰ المدينة وتعكــس تطورها الثقافي والاجتماعي والسياسي. ويبرز اســم نجيــب نصــار، مؤســس جريدة "الكرمل" ورشــيد الكرملي، ذو المواهب الأدبيــة، وتوفيــق أبوغيــدا، المقــاول المثقــف صاحــب النزعــة الوطنيــة، والشيخ مناور الزعبي الوطني بالفطرة وصاحب النزعة القومية.

> أحداث الرواية تدور في مرحلة دقيقة من تاريخ المنطقة عامة وتاريخ فلسطين بشكل خاص هي مطلع القرن العشرين

وتقــدم الروايــة أيضًا شــخصيات ثانوية، علىٰ غرار ظاهر العمر الزيداني، والــي حيفــا الــذي حوّلهــا مــن قرية للصياديــن إلىٰ مدينــة "يتمطّىٰ حولها ســور عــال لحمايتهــا". وكذلــك الملك فيصل بــن الحســين، الذي اســتقبلته حيفا بعد أن خذلتــه بريطانيا وأخرجه الفرنســيون من دمشــق، والــذي يظهر فــي الروايــة مثقفًــا، عالمًــا بالتاريخ، سياســيًا بارعًا، مدافعًا عن حق العرب في النهضة والوحدة.

وتحضر في هذه الرواية شخصيات لورانس، والمطران غريغوريوس حجار، والشــاعر وديع البســتاني، والشــاعر ســليمان أيــوب، وراغب النشاشــيبي رئيس بلديــة القــدس، والمفتي محمد أمين الحسيني.

ويظهــر للقــارئ أن الروائــي يمزج عمــدًا بيــن الشــخصيات التاريخيــة الحقيقيــة والشــخصيات المتخيلــة، لاســتكمال البنيان الفني للرواية. فضلًا عن أنــه يقدم توثيقًــا تاريخيًا لعدد من الأمكنة، ويورد أحداثًا مفصلية مثل بناء خط سكة الحديد، والمؤتمر العربــي الأول، وتأســيس الهيئــة العربية العليا، والإضراب الفلســطيني العــام، والثــورة الفلسطينية الأولــىٰ (1936)، والحــرب العربية الإســرائيلية الأولــىٰ (1948)، ما يضفــي علىٰ الرواية بُعدًا توثيقيًا، ويجعلها تتراوح ما بين الرواية التاريخية والرواية الدرامية.

ولا تشذ الرواية عن المتن الروائي الفلسطيني الذي اشتغل، منذ احتلال فلسطين وقيام الدولة الصهيونية عام 1948، علىٰ إنجاز نص سردي متخيل ينطلق من نكبة فلسطين والأحداث المصاحبة لها، من عمليات تطهير عرقي وتهجير قسري وشتات دفع الفلسطينيين إلــىٰ جهات الأرض الأربــع. وبغــض النظر عن مســتوى المدونــة الروائيــة الفلســطينية، التي ســعت إلــىٰ القبض علىٰ لحظــة النكبة في الزمــان والمكان، أو في ما يســميه ميخائيــل باختيــن "الكرونوتــوب الروائــي"، فقــد اســتطاعت الروايــة أن تقــدم روايــة مختلفــة عــن الرواية الصهيونيــة لاحتــلال فلســطين وقيام الدولة العبرية.

ولكن "الكرمــل" تذهب أبعد من ذلك بتقديــم رؤية إلىٰ ما قبــل 1948، لتعري مــا تعرض لــه الفلســطينيون والعرب تحت الحكم العثماني الذي مارس أسوأ الجرائم علىٰ الشعوب العربية الطامحة إلىٰ التحرر.

وقائع تاريخية

إن رؤيــة التاريخ والرواية من خلال البعــد الســردي الــذي يجمــع بينهما جدير بــأن يحملنــا علــىٰ التمييز بين السرد الأدبي عامة، والروائي علىٰ وجه الخصوص، والسرد التاريخي، من جهة، ومن جهة أخرى، يدفعنا إلى البحث في العلاقة الممكنــة والمحتملة بينهما من جهــة أخرى. و"الكرملــي" وإن اعتمدت علىٰ التاريخ كمادة أساســية لها فإنها لم تسقط في دائرة السرد التاريخي، بل قدمت رؤية للتاريخ عبر السرد.

تــدور أحــداث الرواية فــي مرحلة زمنية دقيقة وحاسمة من تاريخ المنطقة بشكل عام وتاريخ فلسطين بشكل خاص، وهي بداية القرن الماضي التي اتسمت بضعــف الدولــة العثمانيــة وتفككها وصعود التيــار القومــي التركي الذي بدأ يُسيء للمكونات الأخرى في الدولة، وتجلــىٰ ذلــك بحملة القمــع لطموحات الأحــرار العــرب، وإعــدام العديد منهم في بلاد الشام، الأمر الذي استدعىٰ ظهور الجمعية العربية الفتاة، تلبية لطموح العرب بالاستقلال.

وشهدت تلك المرحلة أحداثًا تاريخية واجتماعية مهمة، منها بناء خط سكة حديد الحجاز، وخط سكة حديد حيفا درعا، وهما الخطّان اللذان كانت تسعىٰ الدولة العثمانية من خلالهما إلىٰ ربط أجزاء الإمبراطورية بعضها ببعض. وقد وعدت سكة الحديد بتطورات اجتماعية واقتصادية عكست الروايةُ جزءًا منها، مثل زيادة التبادل التجاري وتعزيز التواصل الاجتماعي بين الحواضر الأردنية ونظيرتها الفلسطينية، وبالتالي التقارب علىٰ المستويين السياسي والفكري.

ومــن الأحــداث المهمة التــي مرّت عليها الرواية وتركت صدىً في المنطقة: حرب البلقان التي استفزت أحلام العرب بالاســتقلال وتحقيق الوحــدة العربية من تطوان إلىٰ بغداد، والحرب العالمية الأولىٰ، ودخول العرب بقيادة الشــريف الحسين بن علي في تحالف مع الإنجليز للقضاء علىٰ الدولة العثمانية، واتفاقية ســايكس-بيكو، ووعد بلفــور الذي قدم فلســطين ليهــود العالم ليقيمــوا علىٰ أرضها دولة يهودية.

هذه الأحداث وسواها أعطت الرواية التوتــر المطلــوب، فتفجير خط ســكة الحديد أعاد الناس لاســتخدام الجمال فــي التجارة، وخــروج الملك فيصل من دمشق أعاد النضال القومي إلىٰ جذوته الأولىٰ، والحيــاة الرتيبــة الهانئة آلت إلىٰ توتــر وصراع في ظل تزايد الهجرة الصهيونية إلىٰ فلسطين.

يقــول الكاتب "كانت فلســطين كلّها فــي تلــك المرحلة كبيــتِ النــار، ترتجّ مصابيحهــا مــع الأحــداث كارتجــاج أشرعة ســفينة تائهة في بحر الظلمات، وكان اختــلاف الآراء حول طوق النجاة الأفضــل يُفقِــد الســفينة القــدرة علىٰ الصمود في وَجه الأنواء".

ومــع انطلاقــة الثورة الفســطينية ضــد سياســات الانتــداب والهجــرات الصهيونيــة، أيّدتها جريــدة "الكرمل"، وأصبحــت شــبه ناطقة باســمها، لكن مصيــر الجريــدة كان يتماهــىٰ مــع الأوضــاع التــي لا تســرّ، فوصلــت في النهايــة إلىٰ طريق مســدود، تمامًا كما وصلــت الثــورة إلــىٰ طريق مســدود، وانتصــرت الميليشــيات الصهيونيــة المدعومــة من الإنجليز علــىٰ الجيوش العربية غير الجاهزة للحرب، وســقطت حيفــا بعــد استشــهاد القائــد الأردني محمد الحنيطي، وتحول توفيق أبوغيدا ورشــيد الكرملي إلــىٰ لاجئَيْن في مخيم في ضواحي دمشــق. وكما يقول الناقد المغربي ســعيد يقطين فــإن "الروائي الــذي يبنــي رواية علىٰ مــادة تاريخية جاهــزة لأنــه يحتاج إلىٰ مــادة حكائية فقــط، ليس هــو الروائي الــذي لا تهمه المادة، ولكن يعنيــه تقديم رؤية خاصة عن الإنسان بغض النظر عن الزمان".

ولذلــك قدم مســعود مقاربة مختلفة للمــادة التاريخيــة بإضفــاء تفاصيــل خيالية تســهم في إعادة قراءة ما حدث بالفعل من منظور مختلف.

تنتهــي الروايــة، التي صــدرت عن "الآن ناشــرون وموزعــون" بعمّــان، بلقــاءات بيــن عدد مــن الشــخصيات الوطنيــة والقوميــة، يجــري خلالهــا تقييــم تجربــة الحــرب، وتفضــي إلىٰ خروجهــم مــن "الظــلام الحالــك الذي حدّثهــم عنه العمّ توفيق إلــىٰ ظلام أقلّ منه".

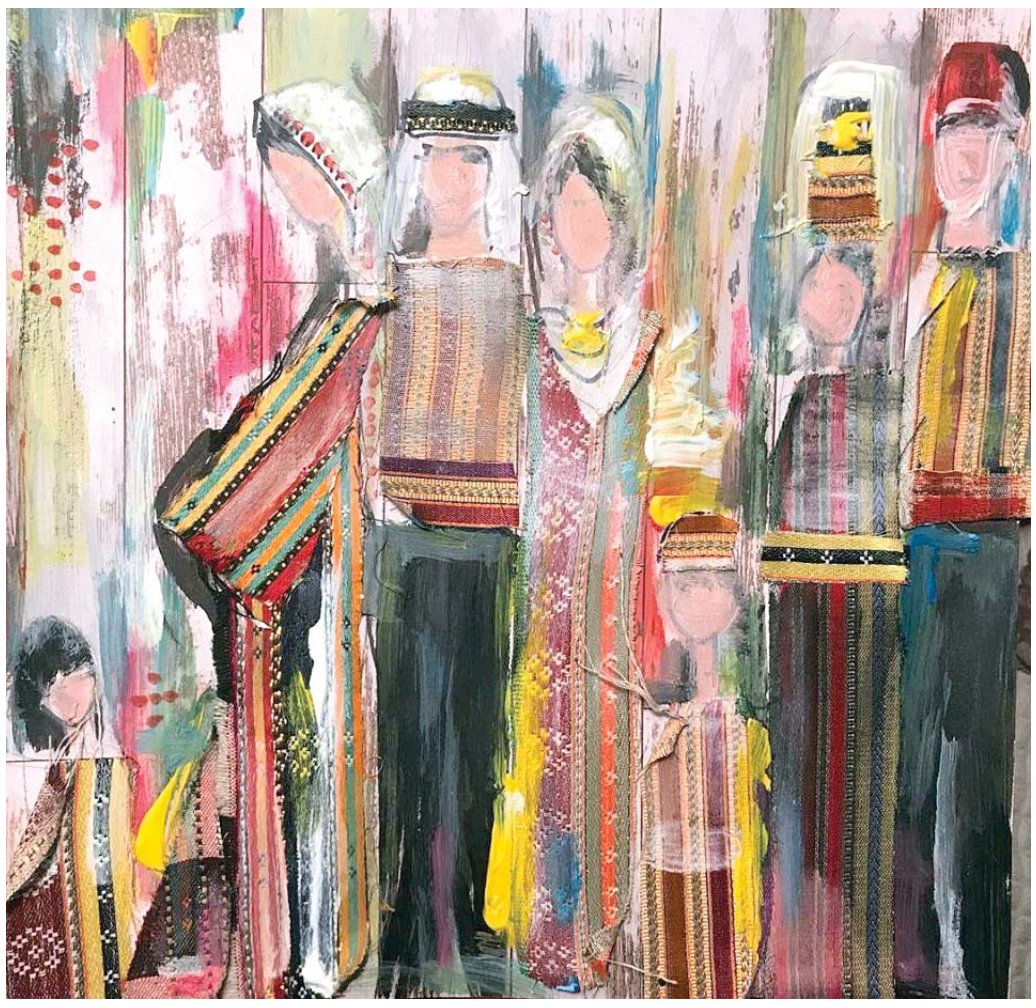

رؤية أخرى لما حدث بالفعل (لوحة للفنان نبيل عناني)

مسرحيون عرب يحتفون بسعدالله ونوس في ندوة مؤسسة العويس الثقافية

دبــي – تنظــم مؤسســة ســلطان بن علي العويــس الثقافية يومي الثلاثاء 25 والأربعاء 26 مايــو الجاري 2021، ملتقىٰ فكريــا افتراضيا عن الكاتب المســرحي الراحل ســعدالله ونوس بعنوان "الأمل ينتصــر والحلم يســتمر" وذلــك ضمن خطتهــا الهادفة إلىٰ إعــادة إحياء ذكرى مبدعيــن عــرب كبــار فــازوا بجائــزة ســلطان بن علــي العويس فــي مختلف الحقول.

يشــارك فــي النــدوة نخبــة مــن الشــخصيات الفكريــة والفنية المرموقة عربياً بشــهادات وبحوث ودراســات عن المســرحي الراحــل الــذي فــاز بجائزة ســلطان بن علــي العويــس الثقافية في حقل القصــة والرواية والمســرحية في دورتهــا الأولــىٰ (1988 ـ 1989) وجاء في حيثيــات الفــوز أن "ســعدالله ونــوس يتعامل مع الواقع العربي برؤية واضحة من الناحيتيــن النظرية والعملية، واعية لــدور المســرح فــي تعميق الإحســاس الجماعي بالمصير التاريخي".

ويعد ســعدالله ونوس (1941 ـ 1997) أحد أهم المســرحيين الســوريين، ممن أسهموا في إثراء المســرح العربي، فقد أبدع مســرحا جديدا مختلفا عن مســرح الخطابة، آمــن بـ"الكلمة – الفعل" وخلق مســرحًا وجوديًــا فلســفيًا، وأصبــح إحدى علامــات الضمير الشــجاع. ومن أجــرأ مســرحياته السياســية "الفيل يا ملــك الزمــان" (1969)، "الملك هو الملك" (1977)، و"رحلــة حنظلة مــن الغفلة إلىٰ اليقظة" 1978.

وقــد اســتلهم ونــوس نصوصــه المســرحية من التــراث العربي، ونبش في تحالفات الســلطة والجلادين والمال ورجــال الدين ضد الشــعوب ومصيرها، وبحــث عــن شــخصياته فــي القصور والسجون والأســواق والمواخير، ملوك ووزراء ورجــال ديــن وبائعــات هــوى، واســتفاد من مؤرخين يُراقبون ويُعلّقون داخــل مســرحياته دون أن يتدخلوا في مجراها.

قــدّم المســرحي الســوري إضافــة نوعية للفكر والأدب العربيين، وأغناهما بإبداعات مســرحية إنســانية سياسية وفكريــة، دافــع فيهــا عــن قيــم الحرية والديمقراطيــة والإنســانية والعدالــة الاجتماعيــة، وأعــاد دراســة أحــداث تاريخيــة لتعرية الحاضــر ونقد الواقع المعيــش، واقتراح أفــكارا وقيما تجعل الإنسان أكثر حرية ووعياً.

وكان ونوس أول مسرحي عربي يقوم بكتابة الرسالة الدولية في اليوم العالمي للمســرح (1996)، وتــم تكريمــه في أكثر من مهرجان مــن أهمها مهرجان القاهرة للمســرح التجريبي ومهرجــان قرطاج، إضافــة إلــىٰ جائــزة ســلطان العويس الثقافية.

واتسم ونوس في بياناته بالمنهجية، رغــم اعترافه بأنهــا رؤوس أقلام وليدة تجربة قصيرة في الممارسة المسرحية، لموضوعــات تحتاج إلىٰ وقفــات أطول حتىٰ يستوفيها البحث، ويعمّق ما تمسّ من قضايا وشؤون مسرحية وثقافية، أو فروض للبحــث عن مســرح أصيل يعي دوره فــي بيئته، ويحاول أن يســتوعب هذا الدور ويضطلع به.

وقد شــكّل الجمهــور الهاجس الأول لونــوس، لأنه يعــدّه المدخل الأساســي والصحيح للحديث عن المسرح وتبلوره وإشــكالاته، لذا دعــا إلىٰ أن يقــدّم لهذا الجمهــور مســرحا شــعبيا ملتحما به، نابعــا من ظروفــه، يشــتمل، إضافة إلىٰ المتعة، علىٰ فعالية تنمية وعيه، وإدراكه المســرحي بــول شــاوول مــن لبنــان والكاتب المسرحي فرحان بلبل والكاتب المسرحي نجم الدين سمان والكاتبة ديما سعدالله ونوس من سوريا والممثل أحمد الجسمي من الإمارات والكاتب والفنان عبدالله صالح من الإمارات والناقد المسرحي عزالدين المدني من تونس والناقدة ابتهال الخطيب من الكويت والكاتب والمخرج المسرحي عبدالإله عبدالقادر من العراق والأكاديمي حسن يوسفي من المغرب، ويدير الملتقىٰ الدكتور حبيب غلوم من الإمــارات والناقد المســرحي عصام أبوالقاسم من السودان.

> سعدالله ونوس ثار على القوالب الجامدة للمسرح العربي وراهن في منجزه على المتفرج مقدما إضافة نوعية للفكر والأدب العربيين

ندوة حول أهم المسرحيين العرب

يقام الملتقىٰ افتراضيا عبر بث حي علىٰ منصة مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية ويمكن حضور وقائع الملتقىٰ من خلال صفحة المؤسسة علىٰ الفيسبوك، ومن ثم ستطبع جميع المشاركات في كتاب تصدره المؤسسة لاحقا.